

الرقعة في عهد الرشيد

عمر الحمود

بحث تاريخي يحاول تسليط الأضواء على فترة مزدهرة من التاريخ العربي، فترة حكم الرشيد للدولة العربية الإسلامية والأيام التي عاشها في الرقعة، هذه الأيام التي لم تأخذ حقها في دراسات الباحثين.

(الرقعة هذه المدينة الصغيرة الآن، نافست في الأمس أمهات المدن كبغداد ودمشق والقاهرة وخاصة في أيام الرشيد ومع هذا ظلمتها كتب الدارسين، وظلت أخبارها متناثرة في بطون الكتب ولعلنا في هذا البحث الموجز نعطيها جزءاً يسيراً من الإنصاف أو نلفت الانتباه إليها).

1-نسب الرشيد: هارون بن محمد المهدي بن عبد الله المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، فهو فرع فاضل من شجرة مباركة، شجرة عبد المطلب جد النبي محمد "ص" فلا عجب أن يكون عصره العصر الرطب يعبق فيه نسيم الرخاء والطيب.

والخير ان الجرشيّة اليمنية أمه، والري حاضرة فارس مولده /150هـ/ 767م

تولى الخلافة بعد وفاة أخيه موسى الهادي /14 ربيع الأول سنة 170هـ/ 786م

وتفاعلت العامة والخاصة من عرب ومن عجم برفاه وإنصاف يستمر على يديه لما عُرف عنه من حسن أخلاق ودفاع عن البلاد ومداومة على الصلاة والحج.

2-الرشيد في سطور: هو أعظم خليفة عرفته الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي وراعي حضارتها الذهبية، جمع بين جمال الوجه وجمال العلم والتقوى، ونال من القوى والرحمة ما جعله قادراً على قيادة دولة عظمى بحزم ورشاد وتوجيهها بأمجاد خالدة.

يصلي في اليوم مائة ركعة، يغزو عاماً ويحج عاماً، وهو أول خليفة حج ماشياً من الرقعة إلى مكة (1).

*أديب من سورية

(1) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ابن تغري بردي الاتاكي ج2 حوادث سنة 170 هـ. تم محمد علي الدرويش.

استنّ سنناً حسنة جرى المسلمون عليها من بعده كحماية قوافل الحجيج وتخدمها.

ونقش الشاعر المعالي الكلابي على جبين الدهر شعراً يلخص أعمال الرشيد:

فمن يطلب لقاءك أو يُرده
فبالحرمين أو أقصى الثغور⁽¹⁾

وبقي خليفة حتى توفي/ 3 جمادى الآخرة سنة 193هـ/ 808م

3-صلة الرشيد بالركة قبل خلافته: كانت الصوائف من طرف المسلمين لا تتوقف، وغارات الروم على حدود الدولة العربية الإسلامية لا تبطل، ومجاورة الجزيرة للحدود مع الروم جعلها خط مجابهة فحظيت حاضرتها الرقة بأعمال عسكرية ومدنية رفعت شأنها، عدا تمتعها بمركز تجاري ممتاز تنصب فيها نفائس الشام وإفريقية عبر نهر الفرات، ومن البصرة والموصل تأتيتها روائع الهند وفارس، ومن بلدان الجزيرة تنزود وتصدر ما هو زراعي وصناعي بري ونهري، وكل ما تشهيه النفوس وتتشوق له الأبصار.

وفي سنة 163هـ/ 779م احتقل الخليفة المهدي بأمر الصائفة، وولى أمرها للرشيد، وولاه غربي⁽²⁾ الدولة، وبات يدير شؤونها من الرقة، وجعل من الرقة قاعدة تموين وتجميع وانطلاق الجيوش ففي تلك السنة زحف⁽³⁾ الرشيد على بلاد الروم في جحافل عظيمة يرافقه قائد الحملة يزيد بن مزيد الشيباني وفتح وغنم، ونوافق من يقول بأن الرشيد كان ممثلاً للخليفة في هذه الحملة والاعتماد الأساسي فيها كان على يزيد بن مزيد الذي خرجته الحروب وصقلته السنون، أما الرشيد فعمره لا يتجاوز التاسعة عشرة وقتئذ.

وفي سنة 165هـ/ 781م انطلق الرشيد بالصائفة التي وصل تعداد رجالها 95763 رجلاً ونفقته 194000 دينار و 14300 درهم (الدينار يساوي عشرين درهماً). ووصل القسطنطينية عاصمة الروم/ وصل إليها العرب ثلاث مرات في العهد الأموي/. وأرعب الروم وقاتل قتالاً حقيقياً وتعرض للمخاطر بجانب يزيد بن مزيد ورضخت ملكة الروم "إيريني" الملقبة بأغسطة لجزية سنوية قدرها 70000 دينار وإعاشة الجيش حتى وصوله الحدود وإقامة الأدلاء والأسواق في طريق عودته، لأنه طرق أراضي لم يعرفها أحد من جنده، وبعد عودته المظفرة أخذ له والده المهدي البيعة بعد موسى الهادي ولقبه بالرشيد لما أبداه من رشد ومهارة وحزم.

وعن هذا النصر الميمون تحدث الشعراء في الآفاق، فارتفع صوت مروان بن أبي حفصة:

أطفأت بقسطنطينية الروم مسنداً
إليها القنا حتى اكتسى الذل سورها

(1) البداية والنهاية: ابن كثير ج 10 ص 203.

(2) النجوم الزاهرة: الاتاكي: حوادث سنة 163هـ.

(3) تاريخ الطبري: الطبري ج 3 ص 506.

وما رمتها حتى أتتك ملوكها
بجزيرتها والحرب تغلي قدورها⁽¹⁾

وكان الرشيد يستعذب هواء الرقة في الصيف، فيستريح في رياضها الظليلة قبل الصائفة وبعدها، ويريح الجيوش في ربوعها.

وقد كان المهدي قد اعتنى بالرافقة، ونقل أسواق الرقة⁽²⁾ القديمة إلى المزارع الكائنة بين الرقة والرافقة واتصلت أبنية الرقة بأبنية الرافقة وصارت كلها تدعى الرقة.

واستصلحت الأراضي حولها، وتحولت إلى حدائق بأزهار وثمار وأطيار وأنهار، وأحب الرشيد تلك الحدائق وتعلق بنهري رقة واسط/الهني والمري/، وحين نوى الهادي أن يمنح ولاية العهد لولده جعفر بدلاً من الرشيد عرض عليه الهني والمري، وكاد الرشيد أن يقبل العرض قائلاً: إذا حصلت على الهني والمري وخلوت بابنة عمي -يعني زبيدة- فلا أريد شيئاً⁽³⁾.

فقال مستشاره يحيى بن خالد: وأين هذا من الخلافة؟

فاقتنع الرشيد برأي يحيى، وتمسك بحقه في الخلافة بعد الهادي.

هذا يبين لنا مدى الحب الذي يكنه الرشيد للرقة ودوحاتها، لقد جعلها في كفة تعادل كفة الخلافة وما تحويه من أمصار.

4- لماذا اختار الرشيد الرقة مقراً للخلافة؟

كانت تسكن الجزيرة قبائل عربية في الشرق، وفي الموصل ونصيبين تسكن ربيعة، وفي الشمال في ماردين وما حولها تسكن بكر، وفي الرقة وحران وسروج تسكن مضر حتى إن التسميات الجغرافية كانت تطلق على المنطقة الواقعة بين مدينة شمشاط في الشمال وعانة في الجنوب باسم ديار مضر.

وكانت مهد الحضارات القديمة، فلا زالت آثار الترع والسدود والقلاع والحصون على شطآن أنهارها.

فلم يكن اختيار الرشيد للرقة سنة 180هـ/ 796م مقراً للخلافة يعود إلى سبب عاطفي أو نزوة عابرة، بل كان نتيجة حتمية لخطة مدروسة أوجدتها دوافع سياسية وعسكرية واقتصادية وقومية نلخصها في البنود التالية:

1- الرقة تشرف على الجزيرة التي تعد ساحة للخوارج، وهم فئة ذات بأس وفكر يقلق السلطة، فلها في كل عهد قائمة، وقد خرج منها الوليد بن طريف الشاري⁽⁴⁾ التغلبي سنة 179هـ/

(1) البداية والنهاية: ابن كثير ج 1 ص 147.

(2) معجم البلدان: ياقوت الحموي ج 4 ص 208.

(3) تاريخ الطبري: أبو جعفر الطبري ج 8 ص 152-153.

(4) البداية والنهاية: ابن كثير ج 10 ص 73.

795م حين رجع إلى الجزيرة، واشتدت شوكته وكثر أتباعه وهاجم مدن الجزيرة وهزم حملات الدولة ضده حتى بعث إليه الرشيد يزيد بن يزيد الشيباني فقتله وفرق أتباعه، ورثته أخته ليلي (الفارعة) بشعرٍ نأخذ منه هذه الأبيات⁽¹⁾:

أيا شجر الخابور مالك مورقاً كأنك لم تجزع على ابن طريف
فتى لا يحب الزاد إلا من التقى ولا المال إلا من قناً وسيوف
ولا الخيل إلا كل جرداء شطبة وكل حصان باليدبن عروف
فلا تجزعا يا ابني طريف فإتني أرى الموت نزالاً بكل شريف

وفي سنة 180هـ/ 796م ثار الخوارج في الموصل، فترك الرشيد ولده الأمين في بغداد، ونزل في الرقة ثم تحرك إلى الموصل وهدم سورها وفرقهم⁽²⁾.

وقد ذكر ابن حوقل أن في الرقة عناصر من الإباضية: وهي فرقة من فرق الخوارج⁽³⁾.

2- بُعِدَ الرقة عن نفوذ البرامكة الذي استقل في بغداد، ففي الرقة يعتمد الرشيد على العنصر العربي، فمعروف أن الشام بما فيها الرقة تميل لبني أمية، وإن لم تشهر هذا (نذكر هنا أن الرقة لم تجسر السفن على الفرات ليعبر جيش الإمام علي رضي الله عنه في معركة صفين إلا بعد تهديد الأشر النخعي لها).

وقد لجأ إلى الرقة الكثير من وجهاء العراق في زمن الأمويين كزفر بن الحارث والجحاف بن الحكيم وعبيد بن الحر ومالك بن مسمع، فقد هجروا البصرة بعد وقعة الجمل قائلين قول بني الأرقم: (لا نقيم في بلد يُشتم فيه عثمان)⁽⁴⁾.

وعزم الرشيد على كسب هذا الميل الذي يعد ميلاً للقومية العربية ودعماً لسلطته ويكون في منعة من قومه أكثر مما كان في منعة من سلطانه في بغداد. حتى إن بعض البرامكة أوجس خيفةً من رحيل الرشيد إلى الرقة، وتناوشته الظنون من نائبة يخفيها القدر، فقد تحدث يحيى بن خالد عن احتمال وقوع كارثة البرامكة لكنه يجهل مداها وساعة وقوعها، ونصح أولاده بعدم صحبة الرشيد إلى الرقة، فلم يأخذوا قوله مأخذ الجد⁽⁵⁾.

4- الرقة كثيرة الخيرات، خصبة السهول، عذبة المياه، لطيفة المناخ، وما يقدمه إقليمها من خراج يفوق خراج أي إقليم آخر عدا مصر. وكما أسلفنا فالرشيد يحب منازة الرقة

(1) الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة: ابن شداد ج3 ص 23 تح. يحيى عبارة.

(2) المرجع السابق ص 175.

(3) تاريخ الرقة: القشيري ص 46. ت طاهر النعساني.

(4) مجلة العمران: العددان 37-38. عدد خاص عن الرقة.

(5) الوزراء والكتاب: الجهشيار ص 248-249.

وأنهارها وخمائلها التي حركت أقلام الشعراء، وفي طليعتهم الشاعر أبو بكر الصنوبري،
فأنشد متغنياً بجمال الرافقة وعلو مكانتها(1).

أما الرياض فقد بدت ألوانها صاغت فنون حليها أفنانها
رقت مغانيها ورق نسيمها وبدت محاسنها وطاب زمانها
هذا خزامها وذا قيصومها هذا شقائقها وذا حوذانها
واها لرافقة الجنوب محلة حسنت بها أنهارها وجنانها
يا بلدة ما زال يعظم قدرها في كل ناحية ويعظم شأنها

5- لم يحصن الأمويون مدنها تحصيناً متيناً فانهارت بسرعة، ولكي لا يقع العباسيون في الخطأ
نفسه حصنوا مدنها، فالمهدي حصن الرافقة بسورين على شكل نعل الفرس أساسهما من
الحجر وقوامهما من اللبن المحمي بالفخار، بينهما فصيل عرضه 20.8 م وسماك السور
الخارجي 4.5 م وحوله خندق عرضه من الأعلى 15.9 م وعرضه من الأسفل 9.5 م.

والسور الداخلي أكثر ارتفاعاً من السور الخارجي لئلا يصيب المرابطون عليه جماعاتهم
المرابطة على السور الخارجي عند الرمي(2).

أما من جهة نهر الفرات فلا عدو يصل المدينة قبل عبور النهر، فاستعاض عن السور
الخارجي ببرجين ضخمين قطر كل منهما 15.6 م / لا زال أحدهما ماثلاً عند باب بغداد/ وبين هذين
البرجين تنتشر بقية أبراج المراقبة والرمية، وتنعج بالحرس والعساكر وعلى مسافة طول السور
بارتفاع لا يقل عن 30م⁽³⁾ للبرج الواحد ويفصل بين كل برج وآخر 35م. وللسورين أبواب
محروسة، تفتح وتغلق ببسر وسرعة عند الحاجة وأشهرها:

* باب بغداد من جهة الشرق، ويمتد منه طريق بري إلى بغداد وهو الباب الرسمي الذي يدخل
منه الخليفة ويخرج، يدل على هذا كثرة الزخارف فيه وتصميمه المعماري. وقد وُجِدَتْ
عليه كتابة تقول: (أمر بعمارته أمير المؤمنين هارون الرشيد -أطال الله بقاءه- بتولي
الفضل بن الربيع مولاة)⁽⁴⁾.

* باب الرها من جهة الشمال، ويمتد منه طريق إلى الرها وحرّان.

* باب الجنان من جهة الغرب، ويمتد منه طريق إلى البساتين والجنان غرب الرقة، وربما

(1) الشاشي: الديارات ص 141.

(2) معجم البلدان: ياقوت الحموي ص 8 ص 360.

(3) الحوليات الأثرية السورية: مجلد 7 ص 63.

(4) الأعلام الخطيرة: مصدر سابق. ابن شداد ج 3 ص 71.

سمي بباب الجنان بسببها. فالرقة محصنة يصعب اقتحامها. وحين هاجم الوليد بن طريف الشاري الرقة وفيها عبد الملك بن صالح، لم يقاُله عبد الملك لكبر جيشه، وتحصن بأسوار الرافقة وحمته⁽¹⁾.

وقد أقر المهدي فيها كما ذكر البلاذري وياقوت الحموي كتيبة جند خراسانية. وتؤكد حفريات مديرية الآثار في سورية التي جرت في تلال وسهول الرقة أن جميع القصور المكتشفة كانت محاطة بأسوار ذات أبراج عالية⁽²⁾ "وتكتنفها الحقائق، فهي حصون وقلاع إن هاجت الحرب. ومواطن راحة وسلوى إن حل السلم.

6-خوف الرشيد من مناهضة الجماعات العلوية، ومعظم أنصارها من الفرس المحيطين بالخليفة في بغداد، وظهر منهم في زمنه موسى الكاظم، فسجنه الرشيد حتى توفي، وفي سنة 170هـ/ 786 م خرج منهم إبراهيم بن إسماعيل الملقب بـ "طباطبا"⁽³⁾.

7-الخوف من انفصال بعض أجزاء الدولة الغربية بعد أن ترامت أطراف الدولة واتسعت رقعتها وابتعدت أقاليمها عن المركز، وفي الرقة يكون الرشيد على مقربة منها، ويقف للانفصاليين بالمرصاد.

5-رحيل الرشيد من بغداد:

وسط كوكبة من الحرس تحركت ناقة الرشيد من بغداد إلى الرقة سالكة طريق الجزيرة تسبقها فرقة من الجيش، جنودها قصار يدعون "النمل" بأيديهم قسي البندق⁽⁴⁾ /نوع من الكرات المعدنية تُرمى بالقسي بدل السهام/ يرمون بها من يعترض موكب الخليفة، وقد حملت الحاشية الخاصة للرشيد ما خف حمله وغلائمه، وتبعته حاشية كبيرة تضم:

- كبار القادة كيزيد بن مزيد الشيباني.
- كبار الوزراء والمقربين من قصر الخلافة كالفضل بن الربيع والعباس بن الأحنف وإبراهيم الموصلي ويحيى المكي...
- أقطاب الفقه والدين والقضاء كالقاضي أبي يوسف والفقيه محمد بن حسن الشيباني صاحب أبي حنيفة /له مناظرات مشهورة مع الإمام الشافعي في الرقة/.
- كبار الأطباء كجبريل بن بختيشوع...
- أعلام الفكر والعلم والأدب كالأصمعي والكسائي وأبي العتاهية وأشجع السلمي ومروان بن أبي حفصة.

(1) هارون الرشيد: د. عبد الفتاح الجومرد ص 329.

(2) الأعلام الخطيرة: مصدر سابق- ابن شداد ج 3 ص 71.

(3) النجوم الزاهرة: مصدر سابق- ابن تغري ج 2 حوادث 170هـ.

(4) الرقة كبرى المدن الفراتية القديمة، عبد القادر عياض ص 52.

يروى الأصمعي: (لما خرجنا مع الرشيد إلى الرقة قال لي: هل حملت شيئاً من كتبك؟ قلت: نعم، حملت ما خفّ حملته، ثمانية عشر صندوقاً. فقال: هذا لما خففت، فلو ثقلت، كم كنت قد حملت!) وترك الرشيد على بغداد ابنه محمداً الأمين وولاه العراقيين⁽¹⁾.

6- دخول الرشيد إلى الرقة:

كأن حنون فتحت الرقة ذراعيها عام 180هـ/ 796م لتحتضن الخليفة المنقل بالهموم، عوّضت عليه ما فقدته في بغداد، فجعلها بغداداً جديدة، ولم يفارقها إلا لغزو أو لحج أو لأمر جلال حتى خطفته المنون والأقدار وأبعدته عن بلوغ الأمل والأوطار أثناء زحفه لتأديب رافع بن الليث عام 193هـ/ 808م-809م.

لقد اتخذ الرقة موطناً وتحركت العمارة وفي سائر أنحاء الجزيرة، فنهضت القصور المزخرفة والمحلات العامة والمدارس والمساجد والأسواق والمنزهات، ونقل الصناع فنون العمران من الرقة إلى مختلف الأصقاع، فذكر ابن حوقل: (لمدينة المهديّة التي بناها عبيد الله بن المهدي في تونس بابان ليس لهما فيما رأيته من الأرض شبيه ولا نظير غير البابين اللذين على سور الرافقة، وعلى مثالهما عملاً ومثل شكلهما اتخذاً)⁽²⁾.

وكانت أسواق الرقة عامرة منذ العصر الأموي، وللخليفة هشام بن عبد الملك الفضل في هذا، فله سوق كبير يسمى سوق العطارين إضافة لأسواق أخرى، وأشار الشاعر الأخطر إلى ذلك السوق بقوله:

إذا الرقة البيضاء لاحت فروعها فدى كل عطار بها أم مريم

وعُرف السوق الرئيسي في الرقة في العهد العباسي باسم سوق هشام العتيق ونذكر من الأسواق الأخرى سوق الورّاقين وسوق الصاغة وسوق الحدادين والخزف...

وبُنيت مصحات للمرضى "بیمارستانات" ودور لتخزين السلاح والعتاد ودور لتخزين المؤن ومستودعات للبضائع، وعلى رأس العمارات الفريدة والتحف الجديدة قصر السلام خارج سور الرافقة وهو قصر الخليفة أو القصر الأبيض/لطلاء جدرانه باللون الأبيض/ الذي يبدو للنّاظر حمامة بيضاء في مرج أخضر، وضاهى فنه المعماري وسعته قصر الخلافة في بغداد المعروف بقصر الخلد.

ولقصر السلام نظام دقيق للمياه والصرف الصحي، وفيه أنظمة إدارية متبعة في توزيع الخدمات وتحديد أعمال رجال البلاط وعقد المجالس بأمر الخليفة وتقاليده في استقبال الوافدين

(1) البداية والنهاية: ابن كثير ج 10 ص 175.

(2) مجلة العمران: العدد 37-38 سنة 1971م ص 51.

وإجلالهم حسب المراتب وفق نظام يعتمد على المناسبة ومكانة طبقة الوافد، ولألبسة رجال القصر أنظمة مرعية وللبلاط حرسه في ثيابهم الخاصة وأسلحتهم من سيوف ورماح لحماية شخص الخليفة ومراقبة الداخل والخارج وحفظ الأمن، ولكل حارس موقفه ومهمته، فضلاً عن الحجاب، والمسؤول الأول عن إدارة القصر هو الحاجب الكبير يعاونه عدد من رؤساء المستخدمين.

وكانت فخامة القصر واتساعه وألوان النعيم فيه فتنة للأبصار تسلب الباب الزوار وتقجر ينابيع الإلهام عند الشعراء وتمدهم برؤى جديدة ومفردات سلسلة وتراكيب رقيقة وصور حسنة رشيقة، وتدفعهم إلى أشعار الغناء، كما غيروا عاداتهم في مقدمات قصائدهم من بكاء ونوح على الأطلال الدارسة ووصف لبؤسها إلى تغن وإشادة بالقصور العامرة، ووصف مباهجها ومديح للمدن وتعداد محاسنها، فالشاعر أحمد بن يسار الجرجاني يروي قائلاً⁽¹⁾: (دخلنا يوماً على الرشيد بالرقعة، وقد فرغ من بناء قصره الأبيض أنا والتميمي بن محمد وابن رزين وأشجع السلمي، فأنشدته التيمي قصيدة يذكر فيها نقفور ووقعته في بلاد الروم، فكان كأنما ينثر به درراً، ثم أنشدته أشجع السلمي قائلاً:

قصر عليه تحية وسلام	نشرت عليه جمالها الأيام
فيه اجتلى الدنيا الخليفة والتقت	للملك فيه سلامة ودوام
قصر سقوف المزن دون سقوفه	فيه لأعلام الهدى أعلام
نشرت عليه الأرض كسوتها التي	نسج الربيع وزخرف الأوهام
أجرى الإمام إليه نهراً مفعماً	ألقى القياد وليس فيه زمام
برقت سماؤك في العدو فأمطرت	هاماً لها ظل السيوف غمام
وإذا سيوفك صافحت هام العدا	طارت لهن على الرؤوس الهام
أدنتك من ظل النبي وصية	وقرابة وشجبت بها الأرحام
وعلى عدوك يا بن عم محمد	رصدان ضوء الصبح والإظلام
فإذا تنبّه رعبه وإذا غفا	سلت عليه سيوفك الأحلام

وأعجب الرشيد بمطلع القصيدة، وأمر له بجائزة. وببديهة حاضرة يوجه سؤالاً لأشجع:
من أين أخذت قولك:

وعلى عدوك يا بن عم محمد رصدان ضوء الصبح والإظلام

(1) الرقة كبرى المدن الفراتية القديمة: عبد القادر عياش ص 51.

وإذا تنبّه رعبه وإذا غفلا
سالت عليه سيوفك الأحلام؟

فقال أشجع: لا أكذب والله، أخذته من قول النابغة الذبياني:

فإنك كالليل الذي هو مدركي
وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

فقال: من يجبرني إذا نمت؟

ودنا أحمد بن يسار، وأنشد قائلاً:

زمن بأعلى الرقتين قصير
لم تثنه للحادثات غرير

لا تبعد الأيام إذ زمن الصبا
غض وإذا غصن الشباب نضير

فطرب الرشيد لما سمع، وقال له: قل للمغنين أن يعملوا أحياناً في غزل هذه القصيدة. وأمر
لنا بعتاء اقتسمناه).

وأوعز الرشيد لرجال دولته بأن يبنوا قصورهم بجانب قصره، فكثر القصور في الرقة، ومن
القصور الرقية المشهورة:

قصر الإمارة- قصر الحسينية- قصر هرقل- قصر الخشب- قصر الهني والمري بناهما هشام
بن عبد الملك في رقة واسط وشق إليها نهري الهني والمري، وقد آلا إلى زبيدة زوجة الرشيد،
وابتنت فيهما زبيدة القطيعة التي تنسب إليها، وزادت في عمارتهما⁽¹⁾.

وكانت القصور موزعة على عدة أجنحة فهناك جناح للحريم وجناح للحاشية والخدم وآخر
للضيافة وغيره للجواري، وقاعات للاستقبال والولائم والحفلات وفي حدائقها حيوانات مختلفة ونادرة
وكذلك الطيور المتعددة /تشبه حدائق الحيوان في عصرنا/ وأحواض المياه ونوافيرها.

أما الجدران فقد زينت بآيات قرآنية ورسوم نباتية وبتشكيلات الخط العربي والأواني المستخدمة
من المعادن الثمينة، والأرضيات مفروشة بالسجاد الفاخر، وتنفوح روائح العطور النفيسة من تلك
القصور على بعد مسافة ليست قصيرة ويصرف على تلك القصور ملايين الدنانير من الأموال التي
تأتي إلى خزينة الرشيد كل عام، ويصرف منها ما يشاء على نفسه وحاشيته.

وحين رأى سلمة الأحمر ما وصلت إليه تلك القصور من روعة وإتقان وما تحويه أجنحتها من
ترف وغلمان وجوار رومية وفارسية وحبشية وتركية حذر أصحابها من مغريات الدنيا، وعلى
رأسهم الرشيد إذ خاطبه، وقد لمس منه قبول النصيح والموعظة:

أما بيوتك فيها فهي واسعة
فلنيت قبرك بعد الموت يتسع

فقبض الرشيد على لحيته، ودمعت عيناه.

⁽¹⁾ تروح البلدان: البلاذري ق 3 ص 247.

7- الرقة مركز القرار السياسي:

بعد استقرار الرشيد في الرقة استقر فيها ثقل الدولة ومركزها، وفيها اتخذ الرشيد قرارات تركت بصماتها على سجلات التاريخ، فغير تغييراً جذرياً في ولاء الأقاليم ورجال الإدارة ممن عُرفوا بولائهم للفرس أو ميلهم للعمل ضد الدولة بشكل عام، واستبدل بهم آخرين يثق بهم، في محاولة منه لجعل الدولة عربية في رجالها وقوتها، ومن هذه القرارات:

1- تقليص نفوذ البرامكة بهدوء وحذر.

آ- في عام 180هـ/ 3796 عزل القائد البرمكي الفضل بن يحيى عن خراسان وولى جعفر بن يحيى مكانه، ثم عزله وولى عيسى بن جعفر العباسي، وأبقى البرامكة تحت بصره، ثم عزل عيسى بن جعفر، وولى علي بن عيسى بن ماهان عدو البرامكة، ودعّمه بهدف: -

- ملاحقة أعوان البرامكة وتجمعاتهم في خراسان.

- مراقبة أعمال موسى بن يحيى المختفي في خراسان.

/وقد عزز الرشيد دور العرب في الحفاظ على هيبة الدولة حين أسند أمر حركة الوليد بن طريف إلى القائد العربي يزيد بن مزيد الشيباني، ولم يسندها إلى جيش العباسية في 179هـ/ 795 م

ب- عين القائد العربي هرثمة بن أعين رئيساً للحرس بدلاً من جعفر بن يحيى وظل الرشيد يراقب البرامكة بصمت حتى تأكد من تعصبهم للقومية الفارسية وسوء استعمالهم للسلطة والتصرف باسمه دون علمه وجعله يحكم الدولة اسماً لا فعلياً.

ورأى أن الخلاص منهم ضرورة يلزمها بقاء الدولة واستمرارية عروبته، فنفوذهم سرطان توغل في مفاصل الدولة وأجهزتها، وخطرهم يتفاقم وشهرتهم تزداد، حتى قيل: (إن في دولة الرشيد دولة أخرى ملوكها البرامكة)⁽¹⁾.

وبعد موازنة البرامكة للمأمون في ولاية العهد نشط الحزب العربي في بلاط الرشيد نفسه بقيادة الفضل بن ربيع ويزيد بن مزيد الشيباني وعلي بن عيسى بن ماهان وجعفر بن موسى الهادي، وعلم الرشيد من الجوّاري والغلمان والعيون الراصدة للبرامكة بأنهم يقولون في مجالسهم مع الفرس: (الرشيد أعجز من أن يقوم بما يسيء إلينا، وأنه والله ما أكل الخبز إلا بنا، وأن دولته لم تقم إلا على أكتافنا)⁽²⁾.

وبلغ الأمر بجعفر بن يحيى أنه قال لخراسانيين من أتباعه: (وماذا صنع أبو مسلم الخراساني؟ إنه نقل الملك من أسرة عربية إلى أخرى بعد أن أزهق ستمائة ألف نفس سفك

(1) الأغاني: الأصفهاني ج 4 ص 29.

(2) مروج الذهب: المسعودي ج 6 ص 407.

- دماءهم صبراً وإنما الرجل من ينقل الدولة من قوم إلى قوم بغير سفك دم⁽¹⁾.
- وفي عام 178هـ/ 803م رجع الرشيد من الحج وأحاط بالبرامكة جميعهم بمن فيهم موسى بن يحيى المختفي، وقتل جعفر في بغداد، وسجن البقية في سجون الرقة⁽²⁾ ولاحق أعوانهم، وصادر أموالهم، ولم تقم لهم قائمة بعدها.
- ووزع بقايا جيش العباسية في بغداد (الكرمينية) على الحدود، واعتمد على العرب والمستعربين الأمناء لسد الفراغ الذي تركه البرامكة في المناصب الإدارية كعمر بن مسعدة وإسماعيل بن صبيح وكبار الهاشميين وأبقى القيادات العسكرية عربية خالصة ووزعها على الحدود والأمصار تحسباً للطوارئ، ومن قادتها هرثمة بن أعين -عبد الله بن مالك- خزيمه بن خازم -يحيى بن سعيد العقيلي- سعيد بن مسلم بن قتيبة الباهلي- أحفاد قحطبة الطائي- سعيد الحرشي- حميد بن معيوف- أبناء يزيد بن مزيد/ أسعد وخالد ومحمد/ وغيرهم.
- 2- أبقي حماداً السبربري على إقليمي الحجاز واليمن المواليين للعلويين والتمرديين ومدّه بالقوات، ووسع سلطانه.
- 3- أعطى شمال إفريقية لإبراهيم بن الأغلب في شبه إمارة مستقلة له ولأولاده من بعده / 185هـ - 801م/ على أن يدفعوا له الخراج، ويخطبوا باسمه على المنابر، وبهذا وضع حاجزاً بينه وبين الأدارسة في المغرب والأمويين في الأندلس.
- 4- إخماد فتنة الشام / 180هـ - 796م/ بين القبائل اليمانية والترازية⁽³⁾.
- 5- بعث قواده الأشداء في جيوش نظامية لترباط على تخوم الروم في الثغور وتزيد في تحصينات مدن الحدود.
- وأرسل داود بن يزيد المهلبى إلى السند وعبد الله بن يحيى الحرشي إلى طبرستان، ويحيى الحرشي إلى الجبل ليجاور ابن ماهان في خراسان.
- 6- كلف يزيد بن مزيد الشيباني بإخماد ثورات وادي الرس في أذربيجان الشمالية سنة 184هـ.
- 7- قضى على احتمال تعاون الفرس مع الخاقان ملك الخزر في أرمينية بإرساله يزيد بن مزيد / 182هـ - 798م/ ودعمه بجيش خزيمه بن خازم التميمي لمحاربة الخاقان بعد أن عاث فساداً، واعتدى على حدود الدولة.
- 8- ولاية العهد 182هـ - 798م: جدّد الرشيد البيعة له بالخلافة وبولاية العهد الأولى لمحمد

(1) تاريخ التمدن الإسلامي ج 4 ص 11.

(2) هارون الرشيد: الجومرد. مصادر سابق ص 414.

(3) الكامل في التاريخ: ابن الأثير ج 6 ص 91.

الأمين، وولاه الشام، وبولاية العهد الثانية لعبد الله المأمون، وولاه من همدان حتى آخر المشرق، وكلف جعفر البرمكي بإدارة شؤونه.

علماً بأن ولاية العهد الأولى أخذت للأمين سنة 175هـ/ 791م وخاف الرشيد من صراع بين الأخوين فالأمين أمه زبيدة العربية ووراءه يقف الحزب العربي، والمأمون أمه مارجل الفارسية ووراءه يقف الحزب الفارسي، فلجأ إلى عهود بين الأخوين وشهرها عند الكعبة حين حج سنة 188هـ - 804م وكلف ولده القاسم مع عبد الملك بن صالح بحماية الثغور، وبعد انتهاء الحج شخص إلى خراسان بجيش كبير، ولم يدخل بغداد، وأثناء ذلك أخذ البيعة للقاسم المؤتمن بعد المأمون، وأعطى الخيار للمأمون عند توليه الخلافة إن شاء أقره، وإن شاء خلعه وولاه الجزيرة والثغور والعواصم لعله يبعد التباغض الذي ظهرت بوادره بين الأخوة، وبعد أن كتب إليه عبد الملك بن صالح الذي يمثل فئة كبيرة تحركت داخل البلاط لتجعل للقاسم نصيباً في الملك:

يا أيها الملك الذي	لو كان نجماً كان سعداً
اعقد لقاسم بيعة	واقدر له في الملك زناداً
الله فرد واحداً	فاجعل ولاية العهد فرداً

وبهذا توزعت ولاية العهد بين مشاهير أولاده، فقليل في ذلك:

وقلّد الأرض هارون لرأفته بنا أميناً ومأموناً ومؤتمناً

ومع هذا، فقد عاش الرشيد جواً قلقاً لا يستكين إلى قرار، أحس بخطأ كبير وفات الأوان، وصار الخرق أكبر من قدرة الراقع، وقفل راجعاً من خراسان إلى الرقة، ورأى جزءاً من جثة جعفر البرمكي على جسر بغداد، فأمر بجمع بقية الأجزاء وحرقها⁽¹⁾ ورفض الاستراحة في بغداد رغم سفره المرهق الذي دام عاماً، ورغم توسلات الأمين والحاشية، وقيل إنه قال: (والله إني لأطوي مدينة ما وصفت بشرق ولا بغرب، مدينة لا أيمن ولا أيسر منها، وإنها لوطن آبائي ودار مملكة بني العباس ما بقوا، وحافظوا عليها، ولنعم الدار هي، ولكن أريد المناخ على ناحية الشقاق والنفاق والبغض لأئمة الهدى والحب لشجرة اللعنة بني أمية مع ما فيها من المارقة والمتلصصة، ولولا ذلك ما فارقت بغداد)⁽²⁾.

ووصل الرقة في أواخر سنة 189هـ - 805م.

8- الرقة تشهد نهضة في الفكر والعلم والأدب:

انتشرت حلقات العلم في الرقة على يد الرشيد، فكانت المساجد دور علم وفكر وعبادة عبداً

(1) العقد الفريد: ابن عبد ربه ج 3 ص 27

(2) هارون الرشيد: جومرد ص 437.

مراكز العلم المتخصصة والمكتبات العامة والمدارس/ بعضها يهتم بالمذهب الشافعي والآخر يهتم بالمذهب الحنفي/، وامتازت ساحات الرقة وقصورها بالمناظرات والمجالس التي تناقش فيها شتى الآراء والأفكار ولا شرط لاجتهاد أو فكر علمي سوى شرط واحد. "عدم مخالفته لنص قرآني"، وهناك أنواع للمجالس:

- المجالس العامة يعقدها الخليفة نفسه، ويحضرها كبار القادة والوزراء وتهتم بشؤون الدولة.
- المجلس الاستشاري يضم أمراء بني العباس، يُعقد عند أمر يتعلق بالأسرة العباسية كالزواج بين أفراد الأسرة العباسية، أو إقرار عقوبة على أحد أفرادها إن صدر منه خطر على الدولة أو طموح في الخلافة، ومن وجوه المشهورة صالح وسليمان أبناء المنصور، وكبار أبناء الرشيد وعمومته.
- ومن الجدير بالذكر أن لأمراء بني العباس سهماً من المال /سهم ذوي القربى/ عدا هبات الرشيد لهم ليظهروا بمظهر حسن أمام الناس. وفي الجالس المهمة يرتدي الخليفة ثياباً لا يسمح لأحد بتقليدها، ويزين يده بخاتم الخلافة وقد نقش عليه (لا إله إلا الله) وحرسه يقف على يمينه وعلى شماله بأسلحة محلاة بالذهب والفضة زيادة في الهيبة والإجلال، أما المكان فهو قاعة ملكية مزدانة بالحلي والجواهر⁽¹⁾.
- مجلس المظالم، يحضره قاضي القضاة ويرأسه الخليفة بنفسه أو وزيره، يعقد أسبوعياً للشكاوي الخطيرة، حراسته مضاعفة من شرطة وحرس، ويحضره عدد من الفقهاء لإبداء آرائهم واجتهاداتهم في المشكلة المطروحة وإن لم يحضره الرشيد، فأخباره لا تنقطع عنه، ولا تهمة ثابتة إلا بعد محاكمة عادلة وفق الشرع الإسلامي، ولا يهتز السيف أو يُفتح السجن إلا لجرم الزندقة أو لقصاص النفس بالنفس أو لثأر يدفعه الباطل، وراتب القاضي ثلاثون ديناراً شهرياً /الدينار حوالي عشرين درهماً، والكبش بدرهم وقتئذ/⁽²⁾.
- مجالس يستقبل فيها الرشيد العامة:
- يدخل إليه الطبيب جبريل بن بختيشوع، ويسأله عن أخبار العامة، فتدخل الوفود إليه بعد الغداء، ويقوم الحاجب بالسماح للزائرين بالدخول بعد معرفة مسائلهم ثم يعين أماكن جلوسهم والمجلس الذي يليق بهم والزمن المحدد لهم، وقراره قطعي في ذلك.
- مجالس إدارية تهتم بشؤون الإدارة كتحيين ولاية الأقاليم ودراسة أوضاعهم.
- مجالس عسكرية تهتم بشؤون الجيش إثر انتفاضة أو ثورة أو غزوة وراء الحدود.
- مجالس المقابلات يُستقبل فيها وفود الدول الأخرى.
- مجالس خاصة كمجالس العلم يحضرها العلماء والفقهاء وتقام فيها المناقشات المفيدة

(1) المرجع السابق: ص 245.

(2) المرجع السابق: ص 290.

والمناظرات، كالمناظرة المشهورة بين الإمام الشافعي والإمام محمد بن الحسن، وكثيراً ما يحضرها الرشيد، وقد تقام في قصور الرشيد، أو قصور قواده.

- مجالس الأدب يحضرها الأدباء ورواة الأدب والشعر والأخبار والنسابة.

- مجالس السمر والأنس والنزهات وتُعقد حين يشعر الرشيد بالتعب وتقل الهموم فيرفه بها عن نفسه، وفيها الملح والطرائف والنوادر وألعاب الشطرنج.

- مجالس الطب يجتمع فيها أطباء البلاط وعلى رأسهم جبريل بن بختيشوع حين يمرض الرشيد أو أحد أفراد أسرته. وغيرها من المجالس المتعددة...

واستفادت الرقة من هذا الوضع الحضاري، وغدت منارة للعلم والأدب، ومدرسة خرّجت النوابغ في المجالات كافة.

وتَمَّ نقل الكثير من علوم اليونان والهند وفارس وغيرها إلى اللغة العربية، فكان عصرًا ذهبيًا اشتغل فيه العلماء والأدباء والمفكرون وامتزجت الثقافات عبر طلبة العلم الوافدين من أقصى الأمصار وعبر الرحالة والتجار والأديرة السريانية المنتشرة في أرجاء الجزيرة، فكانت مدارس الرقة ونصيبين حرّان والرها تساهم فعلياً في تقدم وازدهار ذلك العصر.

وما بلغت النظر كثرة المشاهير من العلماء والأدباء الذين حملوا كنية (الرقّي) نسبةً إلى الرقة مثل محمد بن جابر بن سنان الحراني الرقي ((البتاني)) - ربيعة الرقي - الحسن بن محمد الرقي - ميمون الرقي...

9- الرقة تزدهر اقتصادياً في ظل الرشيد:

نتيجة لانتقال ثقل الدولة إلى الرقة زاد عمرانها وتضاعف عدد سكانها وازدهر اقتصادها، ساعد على هذا بالإضافة لاهتمام الرشيد وفود الصناع وأرباب المصالح والمهن وسائر أهل الصناعات إليها من مختلف الأصقاع كحلب ودمشق والقاهرة وبغداد والموصل والمدن المجاورة.

- ففي المجال الصناعي انتشرت مصانع كثيرة وكبيرة اعتمدت على المواد الأولية المتوفرة في أراضي الرقة كالشمار /الزيتون والفواكه/ والتربة الغضارية اللازمة للأجر أو على المواد التي تجلب إليها من أراض أخرى، فهناك مصانع للصابون والقطران والزيت ومصانع للفحم النباتي ومصانع وأفران للفخار والأجر ومصانع للتمور وطحن الحبوب والحريز وصك النقود/ عثرت مديرية الآثار على فلس نحاسي مضروب بالرافقة سنة 210هـ/ 825م

وهناك صناعة العصير من العنب والتين وصناعة المنسوجات القطنية والكتانية والصوفية وصناعات معدنية كصناعة السيوف والدروع والرماح والسلاسل واستخراج معدني الحديد والنحاس، أما صناعة الخزف والزجاج فقد بلغت شهرتها الآفاق ولا زالت بقايا الخزف والزجاج العباسي

الرقعي تزيّن متاحف الدنيا، لقد ازدهر في الرقة الخزف والزجاج كما يؤكد العالمان الألمانيان⁽¹⁾ (رزّة وهرتزفلد)، وقد تنوع الزجاج فمنه المذهب ومنه المموّه بالمينا، وعُثِر على كؤوس كثيرة ومشهورة منها كأس شارلمان (ملك فرنسا الذي عاصر الرشيد) المحفوظة في متحف Chartes وكأس القسم الثمانية المحفوظة في متحف Douai وقد زُيّنت الأواني الزجاجية بكتابات كوفية ورسوم على شكل حرف الواو.

وفي المجال الزراعي كانت الزراعة تتراوح بين ركود ونهوض حسب استقرار البلاد السياسي وتقدمت في عهد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك حين سكن الرقة صيفاً، ففي رقة واسط بنى قصرين وجسراً على الفرات⁽²⁾، وشقّ نهريْن عرفا بالهني والمري وظلّت بساتين هشام عامرة حتى مجيء الرشيد إلى الرقة، فألا إلى زبيدة زوجة الرشيد، أما الصنوبري فقد قال عن الهني والمري:

بين الهني إلى المري إلى بساتين النّفقار
فالديـر ذي النّفقار المكلل بالشقائق والبهار⁽³⁾

وجاء الرشيد ليوسع نطاق الزراعة، فبنت حكومته الجسور والقناطر وحفرت الترع والجداول وشقّت الأنهار حتى غدت الجزيرة شبكة متصلة من الماء، وساهم في تحسين الزراعة نوع التربة الخصبة التي تشكلت من طمي الأنهار والفيضانات عبر مئات السنين، فغرست الجنائن وزُرعت البساتين وجلب نهر من الفرات ونهر من سروج بعد أن اشترى الرشيد مياه قرى سروج من أصحابها، وسُمي هذا النهر بنهر النيل وتفرّعت منه جداول تروي عدة أماكن في شمال وغرب الرقة وبني سدّ عليه يُستفاد منه حين تقل الأمطار⁽⁴⁾، والنيل هو الذي عناه الشاعر الصنوبري بقوله:

كان عناق نهري دير زكي إذا اعتنقا عناق متيمين
وقت ذاك البليخ يد الليلي وذاك النيل من متجاورين⁽⁵⁾

وأنشأ ديواناً لتلك الأعمال الإصلاحية (ديوان الأكرة).

وجارى أهل الرقة الرشيد بالعناية ببلدهم، فاهتموا بدورهم، وغرسوا الأشجار ونوعوا البساتين، وملأ الجو روائح الخزامى والقيصوم والأقحوان والنرجس والسوسن والأندريون "زهر أصفر" والرياحين، تتطاير فيها الفراشات، وتشدو الطيور، واحترف بعضهم الزراعة وجلب آخرون عمالاً

(1) كتاب ربيعة الرقي، شاعر الرقة في العصر العباسي - تح. علي شواخ اسحاق ص 47.

(2) معجم البلدان: ياقوت الحموي ج 3 ص 273.

(3) مجلة العمران: العدد 37-38 ص 28.

(4) معجم البلدان: ياقوت الحموي ج 8 ص 360.

(5) المرجع السابق: ص 360.

بالأجرة، ولجأ إلى الرقة الراغب في العمل والطامع بالثراء أو العطاء، وغطت أشجار السنوبر والنخيل والزيتون والحدود والصفصاف والأشجار المثمرة روابي وسهول الجزيرة حتى تحولت إلى نبع يمد الدولة بوافر العطاء ومكان إقامة يليق بالخليفة وانتشرت زراعة الحبوب بجميع أنواعها رياً وبعلاً، وتضاعف الإنتاج وضاعت مستودعات التخزين، وللعلم فإن المنطقة مشهورة منذ القديم بجودة حبوبها وقدمها.

يقول الباحث "ل. دولا بورت" في كتابه حضارة ما بين النهرين معتمداً على أبحاث عالم النبات أوليفيه⁽¹⁾:

(لولا سهول الفرات ما عرف العالم الحنطة والشعير والذرة التي نمت طبيعياً فيها ثم شاعت، وصُنِّرت إلى العالم فيما بعد)

وفاضت الخيرات المتنوعة في الجزيرة لكثرة الأنهار والعيون والآبار فيها فالرها أحيطت بالبساتين، وامتدت الأشجار الكثيرة في سروج من شمال حران حتى جسر منبج، وأنتجت الفواكه والزبيب، وعُمرت دوسر "جعبر" بالأسواق وبكثرة الأرزاق. وزُرِعَ في سهول الجزيرة الرز والقمح والذرة والشعير وقصب السكر والأعشاب والقطن والفواكه والثمار المجففة وكثُرَ عسل النحل والبنديق والكستناء والبلوط.

وفواكهها مرغوبة لدى سكان الأقطار، وترقص لها دنائير التجار، فالتفاح الداماني "نسبة إلى قرية رقية" يضرب به المثل لجودته وحمرة وطيب طعمه ولا تكمل موائد المترفين إلا به، وفيه يقول مسلم بن الوليد "صريع الغواني":

وحياتي ما ألف الداماني لا ولا كان في قديم الزمان

وجولات الرشيد على مدن الجزيرة لا تنقطع، فهو يتفقد حاجاتها، ويطلع على أحوالها، ويمدها بدعائم الرفاهية والاستقرار، حتى غدت من جنان الله في أرضه، ففي رأس العين وحدها أكثر من ثلاثمائة عين جارية منها ما لا يُعرف له قرار (تجتمع في النهاية لتشكل نهر الخابور) عدا المزارع والطواحين والبساتين التي فيها ما تشتهي النفوس، وفي منبج ارتفعت منازل وقصور، ونمت حدائق وزهور، فطاب العيش، وساد السرور.

أما مسكنة فبالإضافة إلى كونها محطة تجارية هامة تحمل تجارات مصر والشام إلى الرقة وبغداد فهي كثيرة الغلات والزراعات، ولكثرة خراجها أقطعها الرشيد للمأمون. وننوه هنا بأن مسكنة لاقت اهتماماً من مسلمة بن عبد الملك إذ حفر فيها نهراً من الفرات يدعى نهر مسلمة وذلك لتطوير الزراعة فيها.

ومثلما ازدهرت الزراعة في شطرها النباتي، فقد ازدهرت في شطرها الحيواني، فقطعان الغنم والإبل والماعز ملأت مراعي الجزيرة وباديتها عدا الطيور وباقي الدواجن، ونالت الخيول ذروة

(1) شعب وحضارة على الفرات الأوسط: أسعد الفارس ص 234.

الاهتمام، فعندما بُنيت القصور تُرك حولها أو قريباً منها ميادين وساحات لسباق الخيول وأنشئت الحقول والإصطبلات الخاصة لتوليد عتاق الخيل وتربيتها، وساعد على هذا مناخ الجزيرة المعتدل آنذاك ووفرة المياه وخضرة المراعي واتساعها وكان للرشيدي من جياذ الخيل الكريمة عدد كبير جداً، وخصّصت للخيول ميادين ترويض وسباق ومراعٍ ومدربين برواتب مغرية ورؤساء حصلوا على مكانة اجتماعية رفيعة بين رجال الحاشية، وفي مقدمتهم ذفافة العنسي ويُدعى صاحب خيل الرشيد. واغتنت حقول الصيد بالطرائد في تلال البليخ ووديانه وفي سهول الفرات ورواياه وبين أشجاره.

أما الضياع التي هُجرت من قبل مزارعيها، فوجه الرشيد إليها هرثمة بن أعين لعمارتها وزراعتها ودعا مزارعيها للرجوع إليها على أن يخفف عنهم الخراج وتحسن معاملتهم. حتى أضحت كل بقاع الجزيرة مستثمرة ومنتجة.

وفي المجال التجاري نشطت التجارة البرية، وخدمتها شبكة طرق ممتازة مخدمة بخانات واستراحات، ورافق القوافل حرس وأدلاء من ذوي الخبرة في الدروب والأسفار والتجار، ومن هذه الطرق:

طريق الرقة- بغداد

طريق الرقة- حلب

طريق الرقة- ثغور الجزيرة

طريق الرقة- الرضاة- حمص

طريق الرقة- الموصل- بغداد

طريق الرقة- حرّان

طريق الرقة- حمص- دمشق

طريق الرقة- سكة دبا..... وغيرها من الطرق البرية

طريق الرقة- دمشق

طريق الرقة- الساحل

طريق الرقة- المدينة المنورة

طريق الرقة- تدمر

ومن التجارات التي ذاع صيتها تجارة الرقيق ومركزها بغداد والرقة والبصرة، فسوق النخاسة في الرقة استوعب دفعة واحدة ستة عشر ألف أسير⁽¹⁾، جلبوا من قبرص.

(1) تاريخ الطبري: أبو جعفر الطبري حوادث سنة 190 هـ.

وتألفت التجارة النهرية، فعلى نهري البليخ والفرات جُهزت موانئ السفن والملاحة النهرية كميناء مسكنة والرقّة ورأس العين، ولعبت تلك السفن دوراً هاماً في تنشيط الحركة التجارية من وإلى الرقّة. وقد كان للرّشيد هواية في ركوب الحراقات (السفن المزينة) في نهر الفرات وأفضل وقت لممارسة تلك الهواية عنده في الليل حيث تزدان سفنه بالأنوار الساطعة فتتساب في الشط بين مصابيح القصور المنعكسة على الماء في لوحة شاعرية جذابة، ويصحب الرّشيد معه في تلك النزّهات النهرية خيرة جلسائه، ومعهم عدد من المغنين والعازفين، وما إن يبتعدوا عن المساكن المأهولة حتى يسمع الرّشيد الغناء من وراء ستار، ويتذوقه، ويشرب الشراب الذي أحله فقهاء العراق.

ونشّطت السفن الفراتية حركة السياح عبر النزّهات النهارية والليلية فيها. ونتيجة لكثرة الصادرات والواردات ازدهمت الرقّة بالبضائع وتعددت الأسواق واتسع سوق هشام العتيق وسوق الصاغة وسوق النخاسة وسوق الوراقين وسوق الحدادين وسوق الزجاج والخزف.... الخ، ونشأ نظام الحسبة لمراقبة الأسواق.

وكأي عصر من العصور بلغ مرتبة عالية في التقدم ونال المجتمع فيه قسطاً وافراً من الثراء فإن هناك جماعات فقيرة تسكن الأكواخ بعيداً عن القصور وتعيش من تعبها وتتأثر بتقلبات البلاد السياسية التي تنعكس على الأسعار.

وفي غمرة الحياة الصاخبة كان الرّشيد يطّلع على أحوال الرعية عبر عسس خاص وجولات تنكرية، وتضاعفت موارد الدولة السنوية /حوالي 42 مليون دينار/ عدا الضريبة العينية وأمام هذا الغنى واتساع رقعة الدولة زعموا أن الرّشيد قال للسحابة المارة في سمائه: أمطري حيث شئت، يأتي خراجك⁽¹⁾.

وكان الخراج يُجنى وفق قواعد كتاب الخراج وللخراج ديوان خاص به.

لقد كان ملك الرّشيد في أوجه، ملك لا تغيب عنه الشمس ولا يتخطاه البرق وكانت الرقّة شامة ذلك الملك، ومنزلاً يقل مثيله، فقال عنها الرّشيد: ((الدنيا أربعة منازل دمشق والرقّة والري وسمرقند))⁽²⁾.

وقال شيخ الربوة الدمشقي: (الرقّة من أنزه بقاع الدنيا، وقد أكثر الشعراء في ذكرها ووصفها والتغني بحاسنها وعظمتها))⁽³⁾.

ومن نتائج هذا الازدهار عموم الرخص، وصارت أغلب الأيام أيام يسر، وقد أوردت الأخبار أنه في زمن المنصور كان مصروف الرجل من عامة الناس مع زوجته لم يكن يتجاوز الثلاثمائة

(1) صبح الأعشى: الفلقشندي ج 3 ص 270.

(2) معجم البلدان: ياقوت ج 5 ص 61.

(3) البداية والنهاية: ابن كثير ج 10 ص 99.

درهم في السنة، فقد كان الكيش يُباع بدرهم حسب قول الطبري وبدرهم زنة ستين رطلاً من التمر وبدرهم زنة ستة عشر رطلاً من الزيت وبدرهم زنة ثمانية أرطال من السمن، وبدرهم زنة تسعين رطلاً من لحم البقر وبدرهم زنة ستين رطلاً من لحم الغنم، وبدرهم زنة عشرة أرطال من العسل... واستمر ذلك الرخاء وتَوَجَّ على يد الرشيد حتى سُميت أيامه بأيام العروس، واستقطبت عدداً كبيراً من السكان من عربٍ ومن عجم، فهناك عرب بني أسد⁽¹⁾ وبني سليم ومن قریش/جاؤوا مع التحرير الإسلامي للجزيرة/.

ويوجد عدد من الأمراء العباسيين القرشيين مثل عبد الملك بن صالح بن علي الهاشمي - العباس بن محمد - الحسن بن محمد الرافقي من ذرية معاوية بن أبي سفيان... ومن العجم جماعات خراسانية أتت إلى الرافقة وقت بنائها من قبل المهدي، عدا طلاب العلم والتجار والراغبين في عطاء الخليفة والأمراء...

وأقيمت في الرقة فنادق كثيرة لاستقبال الوافدين من الحواضر البعيدة كفندق حسين الخادم⁽²⁾. ولم يعد لبغداد في قلب الرشيد ميل، فغارت زبيدة المولعة ببغداد ودجلة وحاولت بطرق كثيرة إرجاع الرشيد إلى بغداد، فلم يرجع حتى زعموا أنها استدعت الشاعر منصوراً النمرى، وكان من المقربين من الرشيد في الرقة وأعطته ألفي دينار، وقالت له: (3) قل شعراً تحبب فيه بغداد إلى أمير المؤمنين فقد فضل الرقة عليها.

وذهب النمرى إلى مجلس الخليفة الأدبي، وقد كتب قصيدة في وصف بغداد ومحاسنها لعل الرشيد يحن إليها، وحين جاء دوره في الإنشاد تقدم قائلاً:

ماذا ببغداد من طيب الأفانين ومن منازله للدنيا وللدين
تحبي الرياح بها المرضى إذا نسمت وجوشت بين أغصان الرياحين

وبعد أن فرغ النمرى من الإنشاد، ابتسم الرشيد، وقد عرف الهدف من هذه القصيدة. وظاهرة مدح المدن انتشرت في ذلك العصر، فمنصور النمرى مدح بغداد وربيعه الرقي مدح الرقة:

حبذا الرقة داراً وبلد بلد ساكنه ممن تود
ما رأينا بلدة تعدلها لا ولا أخبرنا عنها أحد
إنها برية بحرية سورها بحر وسور في الجدد

(1) تاريخ الرقة: القشيري ص 154.

(2) البداية والنهاية: ابن كثير ج 1 ص 102.

(3) ربيعة الرقي: علي شواح اسحق ص 66.

يسمع الصنصل في أشجارها هدهد البر ومكء غرد
لم تضمن بلدة ما ضمنت من جمال في قریش وأسد(1)

وصممت زبيدة، وظلت في الرقة حتى توفي الرشيد، فانتقلت إلى بغداد.
وقد بقيت مكانة الرقة، وأثر جمالها في النفوس حتى بعد وفاة الرشيد، فقد قال ابن العلاء
القارئ في زمن المعتز:

وصفنا البصرة، وما خصت به إذ طلع علينا فتية من كتاب الأنبار، ومعهم أبو حمران الشاعر،
فقال: ما من بلد إلا وأعطى نوعاً من الفضل، يتفرد به، وضرباً من المرافق معدولاً عن غيره
يعجب به أهله.

فقلت له مجيباً: لئن قلت هذا، فنحن لا نعرف مقراً أفضل من البصرة ولا أرضاً تجري عليها
الأتاوة أشرف من أرض الصدقة ولا شجرة هي أفضل من شجرة النخلة، ولا نعرف بلداً أقرب براً
من بحر وحضراً من بدو وريفاً من فلاة وملاحاً من جمال وقانص وحش من صائد سمك ونجداً من
غور من البصرة، فهي واسطة الأرض وغوصة البحر ومفيض الأنهار وقلب الدنيا.

فقال أبو حمران: كل فتاة بفتاها معجبة والخنفس في عين أمه لؤلؤة
فأين أنت يا أبا البصرة من خصب الشام والجزيرة، وعن فضل المسجد الأقصى والبلاد
المقدسة وعن غداة داري مضر وربيعه وعن رفيع قدر الكرم، وعن قول عمرو بن كلثوم:

وعند الله يأتيه دعاها إلى أرض يعيش بها الفقير

لأرض الشام وهي حمى وحب وزيتون وثم نشا العصير

ووالله للرقعة البيضاء وحدها أطيب من البصرة والرافقة أعذى من الأبله ولحلب أخصب من
الكوفة(2).

ويقول المقدسي عن الرقة: (لها جامع عجيب وحمامات طيبة، فقد ظللت أسواقها وارتفعت
قصورها وانتشر في الإقليمين ذكرها)(3).

ورافق ذلك الرخاء عدل وإنصاف ونال كل صاحب حق حقه، فقد كان الرشيد يختار قضاته من
خيرة الناس.

(1) المرجع السابق ص 66.

(2) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم: المقدسي ص 141.

(3) فتوح البلدان: البلاذري ص 3 ق 238-239.

10- التسامح الديني في الرقة:

اهتم الرشيد بالمساجد في الرقة وضواحيها وسائر مدن الجزيرة، وأرفق بكل مسجد حمامات للنظافة، وأصلح المساجد القديمة المبنية باللبن وأدخل عليها الفخار والجص والزخرفات الجميلة بالآيات القرآنية، وكانت الأغلبية تدين بالدين الإسلامي دين الدولة الأساسي.

- فهناك المسجد الجامع بالرافقة الذي بناه المنصور بالقرب من قصر الإمارة ليسهل على الخليفة أداء فريضة الصلاة فيه، ولا زالت آثاره باقية حتى اليوم.

- ومسجد الرقة الجامع وبقيت آثاره حتى أواخر الحرب العالمية الأولى، وعلى أنقاضه بُنيت مدرسة الوحدة العربية في المشتب شرقي الرقة.

- ومسجد بني وابصة بناء الصحابي وابصة بن معبد، ثم أضحي مسجداً لبني أسد يقيمون فيه حلقات العلم وحلقات الذكر.

- ومسجد قریش /نسبة لاسم رجل يدعى قریشاً/ وهو قرب دار الرماح.

- ومسجد الصاغة بجانب سوق الصاغة.

- ومسجد الجنائز ومسجد العمودين.

وهناك في كل مدينة أو بلدة مسجد، وكثرة المساجد تدل على كثرة طلاب العلم آنذاك ووُجِدَت أقلية ماجنة فاسقة لاحقها الرشيد وسجن من ثبتت عليه الزندقة منها.

ولا يقف أمر المنشآت الدينية عند المساجد، فهناك الأديرة المنتشرة في أنحاء الجزيرة، ونذكر أن عياض بن غنم حين فتح الرقة ومدن الجزيرة أعطى عهداً لأهلها تعهد فيه أن لا يخرّب الكنائس إذا دُفِعَت الجزية، فاختلفت الملل والنحل في جوار التسامح الديني لم تشهد له المنطقة مثيلاً.

ونعده بعض الأديرة والكنائس المعروفة آنذاك:

- دير العذارى في باجر من أعمال الرقة /جرو حاليًا/.

- دير الرمان بين الرقة والخابور.

- دير حنّا بين الرقة ومسكنة.

- كنيسة الرها وهي بمثابة كاتدرائية، ويعدّها بعضهم من عجائب الدنيا، بنتها هيلاني أم قسطنطين، وفي الرها ثلاثمائة دير للنصارى قبل مجيء الإسلام.

- الدير ذو الأعمدة.

- دير زكّى الشهير شرق الرقة على كتف نهر البليخ، وهو من أحسن الأديرة (1) ففيه مائتا راهب، وعمارات ونفائس ومتنزّهات وحدائق فيها الغزلان والأرانب وما شابه ذلك عدا

(1) الديارات: الشابشتي ص 139.

طيور الماء والحبارى والعصافير والبلابل وتَفوح من مطارحه روائح الورود، ولا سيما أيام الربيع، وقد كان الرشيد يزوره بين فترة وأخرى، ويلاقي رهبانه منه العناية والتشجيع. وقد أحسن الشاعر أبو بكر الصنوبري في وصف دير زكي، ونفتطف من قصائده هذه الأبيات:

ما لي نأيت عن الهني وكنت لا
أسطيع أنأى عنه طرفة عين

أيما دير زكي كنت أحسن مألّف
مرّ الزمان به على إلفين⁽¹⁾

وفُتِحَ المجال للاجتهاد، وترُجمت التوراة والإنجيل.

11- الرخاء يعم مدن ومناطق الحدود:

امتدت عناية الرشيد إلى الثغور والمناطق الحدودية، فالمدن المحصنة من قبل زاد في تحصينها والمدن الأخرى حصنها من جديد. ونلاحظ أن الاهتمام بالحدود تركّز على الحدود مع الروم لأسباب سياسية وعسكرية فالروم أخطر عدو خارجي لدولة الرشيد. فمن الضروري مد مناطق الحدود بدعائم الرفاهية والاستقرار وترميم ما تهتّم من الحصون وبناء حصون جديدة وإبقاء حاميات جند تكون تلك المناطق حاجزاً متيناً بين الروم والمسلمين ولا يهجرها أهلها عند اعتداءات الروم عليها. وكانت جبايات قنسرين والعواصم والثغور تتفق على المراقب والحرس وتأمين الاستقرار للحدود.

قال معاوية بن عمرو: (رأينا من اجتهد الرشيد في الغزو ونفاذ بصيرته في الجهاد أمراً عظيماً، أقام من الصناعة ما لم يَقم قبله وقَسَم الأموال في الثغور والسواحل وأشجى الروم وقمعهم⁽²⁾).

12- الرقّة قاعدة عسكرية للجهاد:

لم يقف اهتمام الرشيد عند الجوانب المدنية بل تجاوزها إلى الجوانب العسكرية، فقد:

- اهتم بديوان الجند، ومهمة هذا الديوان إحصاء الجند ورواتبهم وأسلحتهم ودوابهم وما يلزمهم من نفقات، وما يأخذونه من غنائم. وقد وصل راتب الجندي العادي إلى عشرين درهماً عدا الغنائم العينية /في زمن كان فيه الكباش يباع بدرهم/، ولا تتجاوز مدة غياب الجندي عن أسرته أكثر من أربعة أشهر عدا غزوات الجهاد التي تطول أكثر من هذه المدة.

- شجّع على تأليف كراسات في الهندسة الحربية وُجِدَت مصطلحات وتعابير عسكرية مثل:

النفير النفير: وتعني استعدوا للهجوم

الأرض الأرض: وتعني ترجّلوا

(1) معجم البلدان: ياقوت ح 4 ص 483.

(2) فتوح البلدان: البلاذري ص 223 تح الطباع.

133

- في عام 190هـ/805م قطع نفقور الجزية السابقة وأرسل كتاباً أغضب الرشيد، فحاربه الرشيد وفتح هرقلة أقوى حصون الروم وفي طريق عودة الرشيد نقض نفقور العهد، فعاد الرشيد إلى حربه رغم جو الشتاء البارد وانتصر على الروم.

وفي عام 192هـ/807م وجّه يحيى بن معاذ إلى أبي الفداء في الشام، فأسره، وقتله. وفي العام نفسه وجّه عبد الله بن مالك إلى الخرمية وانتصر عليهم.

وفي عام 191هـ/806م سار الرشيد بنفسه لينتقم لجيش يزيد بن مخلد الهبيري الذي حاصره الروم في مضيق ففدى جيشه بنفسه وبخمسين جندياً قتلوا ونجا الجيش. لكن مرض الرشيد تفاقم في درب الحدث فعاد إلى الرقة ليتابع إلزحف هرثمة بن أعين فهزم الروم وعاد منتصراً إلى الرقة.

13- الرقة تفقد الرشيد: كان آخر رؤية الرقة للرشيد حين نزلها في يوم الجمعة (25 ربيع الأول 192هـ/807م) قادماً إليها مريضاً من درب الحدث، فبلغته الشكايات ضد والي خراسان علي بن ماهان ورافع بن الليث، فأرسل هرثمة بن أعين بجيش تمكن به من ابن ماهان وأولاده، وبعث بهم إلى السجن وبأموالهم إلى بيت مال المسلمين، وانصرف إلى معالجة أمر رافع، وحين تأخرت أخبار هرثمة سار الرشيد بالسفن الفراتية من الرقة إلى بغداد، وجمع جيشاً ولحق بهرثمة، وترك في الرقة ولده القاسم والقائد خزيمة بن خازم، وفي مدينة طوس اشتد مرض الرشيد، واقترب من الموت، ولم ينسَ مصير الدولة بعده حتى في ذلك اليوم العصيب، فقد زعموا أنه قال: ((إن لكل واحد من الأميين والمأمون والقاسم عندي عيناً عليّ، وهم يعدون أنفاسي وانقضاء أيامي، وذلك شرٌّ لهم لو كانوا يعلمون))⁽¹⁾.

وتوفي في الثالث من جمادى الآخرة سنة 193هـ/808م ودُفن في طوس وفقدت الرقة الرشيد كما فقدته العالم العربي والإسلامي، وكان موته نكبة كبيرة وخسارة لا تعوّض، وتدارك القاسم الموقف، فأخذ البيعة من الناس للأميين بالخلافة وللمأمون بولاية العهد ولنفسه بعده، وغادرت زبيدة الرقة ونقلت ما في الرقة من سلاح وأموال وعتاد إلى بغداد، وبلغت خزائن الرشيد كما يقول الطبري 900.000.000 دينار رغم كل ما أنفقه على الغزو والحج وتحسين أوضاع البلاد ولم تبلغ ثروة في بيت المال في عهد أي خليفة ما بلغته في عهد الرشيد وانتقل ثقل الدولة إلى بغداد، وساعت أحوال الرقة ببطء، وإن لم يلاحظ هذا إلا بعد عدد من السنين.

■ ■

⁽¹⁾ 8 البداية والنهاية: ابن كثير ج 10 ص 207.

الهوامش والمراجع:

- (1) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. الأتابكي ج 2 - حوادث سنة 170 هـ. ت محمد علي الدرويش.
- (2) البداية والنهاية. ابن كثير ج 10 ص 203.
- (3) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. الأتابكي حوادث سنة 163 هـ.
- (4) تاريخ الطبري. الطبري ج 3 ص 506.
- (5) البداية والنهاية. ابن كثير ج 10 ص 147.
- (6) معجم البلدان. ياقوت الحموي ج 4 ص 208.
- (7) تاريخ الطبري. أبو جعفر الطبري ج 8 ص 152-153.
- (8) البداية والنهاية. ابن كثير ج 10 ص 73.
- (9) الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة. ابن شداد ج 3 ص 23 ت يحيى عبارة
- (10) المرجع السابق ص 175.
- (11) تاريخ الرقة. القشيري ص 46 ت طاهر النعساني
- (12) مجلة العمران. العددان 37-38 عدد خاص عن الرقة ص 29.
- (13) الوزراء والكتاب. الجهشيار ص 248-249.
- (14) الديارات. الشابشتي ص 141.
- (15) معجم البلدان. ياقوت الحموي ج 8 ص 360.
- (16) الحوليات الأثرية السورية مجلد 7 ص 63.
- (17) الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة. ابن شداد ج 3 ص 71.
- (18) هارون الرشيد. د. عبد الفتاح الجومرد ص 329.
- (19) الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة. ابن شداد ج 3 ص 71.
- (20) النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة. الأتابكي. ج 2 حوادث سنة 170 هـ.
- (21) الرقة كبرى المدن الفراتية القديمة. عبد القادر عياش ص 52.
- (22) البداية والنهاية. ابن كثير ج 10 ص 175.
- (23) مجلة العمران. العدد 37-38 لعام 1971 ص 51.
- (24) الرقة كبرى المدن الفراتية القديمة. عبد القادر عياش ص 51.
- (25) فتوح البلدان. البلاذري ج 3 ص 247.
- (26) الأغاني. الأصفهاني ج 4 ص 29.
- (27) للمسعودي. ج 6 ص 407.
- (28) تاريخ التمدن الإسلامي ج 4 ص 11.
- (29) هارون الرشيد. الجومرد. ص 414.
- (30) الكامل في التاريخ. ابن الأثير ج 6 ص 91.
- (31) العقد الفريد. ابن عبد ربه ج 3 ص 27.
- (32) هارون الرشيد. الجومرد ص 437.
- (33) المرجع السابق ص 245.
- (34) المرجع السابق ص 290.
- (35) ربيعة الرقي. شاعر الرقة في العصر العباسي. ت علي شواخ اسحق ص 47.
- (36) معجم البلدان. ياقوت الحموي ج 3 ص 273.
- (37) مجلة العمران. العدد 37-38 ص 28.
- (38) معجم البلدان. ياقوت الحموي ج 8 ص 360.
- (39) المرجع السابق ص 360.
- (40) شعب وحضارة على الفرات الأوسط. أسعد الفارس. ص 234.
- (41) تاريخ الطبري. أبو جعفر الطبري. حوادث سنة 190 هـ.
- (42) صبح الأعشى ج 3 ص 270.

- | | |
|---|---|
| <p>(50) فتوح البلدان. البلاذري ق 3 ص 238-239.</p> <p>(51) الديارات. الشاشستي ص 139.</p> <p>(52) معجم البلدان. ياقوت الحموي ج 4 ص 483.</p> <p>(53) فتوح البلدان. البلاذري. ت الطباع ص 223.</p> <p>(54) البداية والنهاية. ابن كثير ج 10 ص 193.</p> <p>(55) البداية والنهاية. ابن كثير ج 10 ص 207.</p> | <p>(43) معجم البلدان. ياقوت الحموي ج 6 ص 61.</p> <p>(44) البداية والنهاية. ابن كثير ج 10 ص 99.</p> <p>(45) تاريخ الرقة. القشيري ص 154.</p> <p>(46) البداية والنهاية. ابن كثير ج 1 ص 102.</p> <p>(47) ربيعة الرقي. علي شواخ اسحق ص 66.</p> <p>(48) المرجع السابق ص 66.</p> <p>(49) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. المقدسي ص 141.</p> |
|---|---|

□□□